34 - السيدة الفريعة بنت مالك

ابنة الأسرة المؤمنة

اسمها الفريعة، والدها مالك بن سنان، الأنصاري، الخزرجي، وأخوها مفتي المدينة سعد بن مالك أبو سعيد الخدري ﷺ المحدِّث والصحابي الجليل، قال عنه ابن الأثير في كتابه «أُسُد الغابة»، وكذلك ابن عبد البر حين صنَّف «الاستيعاب»: «كان أبو سعيد من الحفَّاظ المكثرين، العلماء، الفضلاء، العقلاء».

ومن أراد أن يحيط علماً أكثر بأسرة الفريعة الطيبة، فليعلم أن أخاها لأمها المجاهد البدري قتادة بن النعمان الأنصاري، الرامي المسدَّد يوم أُحُد، البطل الذي سالت عينه على خدِّه ورحى معركة أُحد دائرة، فأسرع إلى النبي ﷺ فردَّها بيده الشريفة إلى مكانها فكانت أحسن عينيه.

وأما أخت الفريعة لأمها فهي المؤمنة المبايعة أم سهلٍ بنت النعمان الأنصارية، فرضي الله عن هذه الأسرة الكريمة، كم اصاب أفرادها من الخير والفضل بجوار الحبيب الأعظم ﷺ!!

ولما نادى المنادي في المدينة أن رسول الله ﷺ قد أصبح بظاهرها، خلت الدور من أهلها، وخرج الناس لاستقبال ضيفهم الأكرم، وكان مالك بن سنان وابنته الفريعة وسائر أسرته في طليعة المستقبلين.

ونزل رسول الله ﷺ ضيفاً على أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري ﷺ، ثم أمر ببناء مسجده الشريف والحجرات الملحقة به لسكن أزواجه، أمهات المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ أجمعين.

وكانت الفريعة ﷺ قد تزوَّجت سهل بن رافع أحد رجال الخزرج،

ولكن لم تطل حياته معها، فقد أَبقَ عددٌ من عبيده، واضطر إلى الخروج في طلبهم، وكانوا قد أعدُّوا له كميناً فغدروا به وقتلوه.

ولما علمت الفريعة بمصرعه حزنت عليه حزناً شديداً، وفكَّرت الفريعة في الرجوع إلى بيت أهلها للعيش بينهم، لكنها وهي التقية المؤمنة، آثرت أن تستشير النبي ﷺ في أمرها.

طاعتها لله ولرسوله

وقد أخرج الإمام مالك في موطئه برواية يَحْيَى، عَنْ مَالِك، عَنْ سَعْدِ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ، عَنْ عَمَّتِهِ زَيْنَبَ بِنْتِ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ أَنَّ الْفُرَيْعَةَ بِنْتَ مَالِكِ بْنِ سِنَان - وَهِي أُخْتُ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِي - أَخْبَرَتْهَا أَنَّهَا جَاءَتْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ تَسْأَلُهُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهَا فِي بَنِي خُدْرَةَ فَإِنَّ زَوْجَهَا خَرَجَ فِي طَلَبِ أَعْبُدٍ لَهُ أَبَقُوا حَتَّى إِذَا كَانُوا بِطَرَف الْقَدُوم لَحِقَهُمْ فَقَتَلُوهُ، قَالَتْ: فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنْ أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي فِي بَنِي خُدْرَةَ فَإِنَّ زَوْجِي لَمْ يَتْرُكْنِي فِي مَسْكَنٍ يَمْلِكُهُ وَلاَ نَفَقَةٍ، قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نَعَمْ» قَالَتْ: فَانْصَرَفْتُ، حَتَّى إِذَا كُنْتُ فِيْ الْحُجْرَةِ نَادَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ - أَوْ أَمَرَ بِي، فَنُودِيتُ لَهُ - فَقَالَ: «كَيْفَ قُلْتِ؟» فَرَدَّدْتُ عَلَيْهِ الْقِصَّةَ الَّتِي ذَكَرْتُ لَهُ مِنْ شَأْنِ زَوْجِي، فَقَالَ: «امْكُثِي فِي بَيْتِكِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ» قَالَتْ: فَاعْتَدَدْتُ فِيهِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا، قَالَتْ: فَلَمَّا كَانَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رضي الله عنه أَرْسَلَ إِلَيَّ فَسَأَلَنِي عَنْ ذَلِكَ، فَأَخْبَرْتُهُ فَاتَّبَعَهُ وَقَضَى بِهِ[1].

وما عسى أن تفعل المؤمنة المسلمة المبايعة غير أن تطيع الذي بايعته على السمع والطاعة؟ لقد اعتدَّت الفريعة أربعة أشهرٍ وعشراً، ثم خطبها رجل من أنصار بني ظفر فتزوجته، وباتت الفريعة رضي الله عنها - مرجعاً لهذا الحديث ترويه لكل من يسألها عنه.

---

(1) رواه: مالك/ كتاب: الطلاق/ باب: مقام المتوفى عنها زوجها في بيتها حتى تحل/ برقم: (1081).

محبة أهلها للجهاد

كانت أسرة الصحابي الجليل مالك بن سنان محبة للجهاد، وملازمة لمجالس رسول الله ﷺ.

ولما خرج رسول الله ﷺ إلى بدر كان مالك مع الذين ظنُّوا أن لن يكون قتال، لذلك لم يخرج إلى بدر، ولم يُكحِّل عينيه برؤية سادة قريش وزعمائها وهم يتهاوون صرعى على أرض بدر، ولا سيما أولئك الذين آذوا رسول الله ﷺ كأبي جهلٍ، وعقبة بن أبي معيط، وغيرهما من كبار السفهاء والمشركين.

حتى إذا كان يوم أُحد علم رسول الله ﷺ أن قريشاً قد حشدت له الحشود، وألَّبت عليه القبائل من تهامة وغطفان، وتحالفت مع الأحابيش، فشاور أصحابه – كعادته – قبل الخروج، فكان رأي كل الذين لم يخرجوا يوم بدر أن يخرجوا ليعوِّضوا ما فاتهم من الخير.

وكان مالك بن سنان من أشد المتحمسين للقاء العدو، فقد وقف يقول: يا رسول الله؛ نحن والله بين إحدى الحسنيين، إما أن يظفرنا الله بهم، فهذا الذي نريد، فيذلهم الله لنا، فتكون هذه وقعة مع وقعة بدر، فلا يبقى منهم إلا الشريد؛ والأخرى يا رسول الله، يرزقنا الله الشهادة، والله يا رسول الله، ما أُبالي أيهما كان، إنَّ كلاً لفيه الخير.

ولما تقرَّر الخروج وقف رسول الله ﷺ يرتِّب جنده ويستعرضهم فرأى بعض الغلمان فردَّهم لصغرهم وعدم أهليتهم للمشاركة في القتال، وكان بين الذين ردَّهم رسول الله ﷺ أبو سعيد الخدري الذي كان بصحبة أبيه المجاهد مالك بن سنان.

وعاد أبو سعيد وهو يبكي بحرارة لحرمانه من شرف الجهاد، وتلقَّت الفريعة أخاها أبا سعيد، وراحت تكفكف دموعه، وتمنِّيه بالخروج في غزوات أخرى قادمة حتى يزهق الشرك وتعلو راية الإيمان.

وأخذت الفريعة وصواحبها يتلقَّفن أخبار ما يجري في ساحة المعركة،

وأشاع أحد المشركين أن محمداً ﷺ قد قتل، ودبَّت الفوضى بين صفوف المسلمين، فمنهم من دفعه الخبر إلى اليأس والاستسلام، ومنهم من شحذ عزيمته، وملأه حماسة فاندفع إلى الأمام كأنس بن النضر الذي لم يتأكَّد من الخبر، لكنه آثر الموت على ما مات عليه الحبيب الأعظم ﷺ، والتحم بالعدو وظل يقاتل حتى رزق الشهادة.

والحقيقة أن رسول الله ﷺ قد كسرت رباعيته، وشج وجهه، وشقت شفته، وخضَّب الدم وجهه الشريف، فهبَّت ثلة من الصحابة إلى مكان وجوده مستلقياً على الأرض وجعلوا من أنفسهم تروساً ليحولوا دون وصول أي شيء يضره من العدة إليه.

وأسرع أبو عبيدة بن الجراح ﷺ إلى رسول الله ﷺ لينتزع بأسنانه حلقتين من حلقات المغفر انغرزتا في ذلك الوجه المنير، وبادر مالك بن سنان، والد الفريعة وأكبَّ على وجه النبي ﷺ يلعق الدم الذي غطَّاه، ونظر إليه رسول الله ﷺ فوجده يبتلعه، فقال له ﷺ: «**مُجَّهُ**»، فقال مالك: والله، لا أمجُّه أبداً! وخالط دمه دم رسول الله ﷺ فوقى نفسه من النار، لأن النار قد حُرِّمت على كل جزء من جسد رسول الله ﷺ.

استشهاد أبيها

وأخذ مالك ينافح عن رسول الله ﷺ حتى سقط دونه شهيداً، وأقبل طلحة بن عبيد الله فانحنى حتى نزل بجسمه تحت جسد رسول الله ﷺ ثم نهض به ومضى إلى صخرة خلف معسكر القتال فأضجعه عليها، وسمع الصحابة رسول الله ﷺ يقول: «**أَوْجَبَ طَلْحَةُ**»، أي وجبت له الجنة.

لقد دخل مالك بن سنان امتحان الشهادة فاجتازه بتفوُّقٍ كبير، وبأحسن تقدير، ذلك أنه لم يمت حتى كانت ملامسته لجسد رسول الله ﷺ ولعقه لدمه الزكي الشريف آخر عهده بالحياة.

وخسر المسلمون الجولة يوم أُحُد، لأن رماتهم خالفوا أوامر رسول الله ﷺ حين تركوا مواقعهم التي جعلهم فيها، وأمرهم ألَّا يبرحوها، وتوقَّف

هدير القتال، وعاد رسول الله ﷺ إلى المدينة، وخرج الناس يتفقَّدون العائدين معه، فالتقى أبو سعيد الخدري برسول الله ﷺ فابتدره رسول الله ﷺ بقوله: «**سَعْدُ بْنُ مَالِكٍ؟**» قال: نعم، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، وانحنى أبو سعيد على رسول الله ﷺ يقبِّل ركبتيه الشريفتين، فقال له رسول الله ﷺ: «**آجَرَكَ اللهُ فِي أَبِيكَ يَا سَعْدُ**».

وكانت الفريعة بنت مالك رضي الله عنها – وجميع أهلها قلقين على رسول الله ﷺ، فلما عاد إليهم أبو سعيد زفَّ إليهم نبأ سلامة رسول الله ﷺ بادىء ذي بدء، ثم قال لهم: واتَّخذ الله تعالى من المؤمنين شهداء، كان أبي بينهم، فاسترجع القوم، وحمدوا الله على سلامة نبيهم ﷺ، وقالوا: «كل مصيبة بعد رسول الله ﷺ جَلَلٌ»[1].

واحتسبت الفريعة والدها عند الله، واستسلمت لمشيئته، واستعانت بالصبر والصلاة كما أمر، رب الخلائق والبشر، ومن أحق منها بذلك وقد ربَّاها والدها على الإيمان، وتفيَّأت ظلال القرآن؟ فلتوطِّن نفسها على لقائه في إحدى الجنان.

روايتها الحديث

كانت الفريعة ذات عقل راجح، وفكرٍ واعٍ، وقد أهَّلها حضورها لمجالس رسول الله ﷺ إلى تلقِّي الحديث عنه وبلوغ سدَّة الرواية، وبلغ عدد الأحاديث التي روتها عن رسول الله ﷺ ثمانية، ومما يدل على مكانتها الرفيعة أخذ عثمان بن عفان رضي الله عنه عنها حديث عدة المتوفَّى عنها زوجها الذي ورد آنفاً، وقضى به، كما عمل به فقهاء المدينة والحجاز ومصر والشام والعراق.

إنه لشرف كبير بلغته الفريعة يوم فتحت قلبها للنفحات التي تحفُّ بمجالس العلم التي كان يديرها المعلِّم الأول أعلم الناس، لأنه تلقَّى علمه

(1) جَلَل: هينة.

عن العليم العلاَّم، الذي علَّم بالقلم، علَّم الإنسان ما لم يعلم، لقدكان معلِّم الناس الخير، ولم يكن للشر في علمه نصيب.

اشتراكها في بيعة الرضوان

لقد تشرَّفت الفريعة بمرافقة رسول الله ﷺ مع بعض صواحبها من نساء الأنصار إلى الحديبية، ونالت من ربها الرضوان.

لقد قال الله تعالى في كتابه العزيز واصفاً أولئك المبايعين والمبايعات: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾ [الفتح: 18، 19].

وفازت ببشارة دخول الجنة فقد أخرج الترمذي عَنْ سُلَيْمَانَ التَّيْمِيِّ، عَنْ خِدَاشٍ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ مَنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ إِلا صَاحِبَ الْجَمَلِ الأَحْمَرِ**» قَالَ أَبُو عيسَى الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ»[1].

وَحَدَّثَ قُتَيْبَةُ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِمَّنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ**»، قَالَ أَبُو عِيسَى الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ»[2].

وكانت الفريعة ممن بايعن النبي ﷺ يومئذٍ وقد روى مُعَاوِيَةُ بْنُ عَمْرٍو، قَالَ: حَدَّثَنَا زَائِدَةُ، عَنْ سُلَيْمَانَ، عَنْ أَبِي سُفْيَانَ، عَنْ جَابِرٍ، عَنْ أُمِّ مُبَشِّرٍ

---

(1) رواه: الترمذي/ كتاب: المناقب عن رسول الله ﷺ/ باب: فيمن سب أصحاب رسول الله ﷺ/ برقم: (3798).

(2) رواه: الترمذي/ كتاب: المناقب عن رسول الله ﷺ/ باب: في فضل من بايع تحت الشجرة/ برقم: (3795).

قَالَتْ: جَاءَ غُلامُ حَاطِبٍ، فَقَالَ: واللهِ لا يَدْخُلُ حَاطِبٌ الْجَنَّةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَذَبْتَ قَدْ شَهِدَ بَدْراً وَالْحُدَيْبِيَةَ»[1].

رحم الله الفريعة وأهلها وحشرهم مع خاتم المرسلين، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

(1) رواه: أحمد/كتاب: باقي مسند الأنصار/باب: حديث أم مبشر امرأة زيد بن حارثة/ برقم: (25800).

obeikandl.com